صباح بن حسونة

فصام

سكيزوفرينيا

رواية

إهداء

-إلى أبي وأمي ..عشتما شامخين وستظلان..في القلب أنتما توقدان شمعة كلما عم الظلام..

- إلى حنين..نبض القلب أنت ..زهرة العمر التي أينعت ذات جدب..

- إلى صديقتي ماضي العمر وقادمه..مباركة وقمرة..بكما يزهر العمر وتتفتح وروده لتتفرد بالمعاني...

- إلى كل إخوتي (فوزي ,فتحي,بسمة,عماد,رياض وكريم)..بذرة مختلفة نحن في عالم يشوبه الفصام..

- إلى كل من استطاع الحفاظ على نفس الوجه في زمن تعددت فيه الوجوه..

أهدي عملي الأول..

صباح

"لا أريد مكانا لأدفن فيه

أريد مكانا لأحيا"

محمود درويش

- 1

توفي البارحة زوجي وهاهو منزلنا يمتلئ اليوم بالمعزين, من كل المشارب جاؤوا..صفوف من الكراسي ملأت الباحة وفاضت على الشارع لتحتضن الحاضرين..أغلبهم من الأساتذة والنقابيين والقيمين والتلاميذ وحتى عامة الناس...بكوا زوجي بحرقة وأشادوا بمآثره طويلا..

تحلقوا حول جسده البارد المسجى في الغرفة بلا حراك ولا حياة ليتلوا على روحه الفاتحة ويقبلوه مودعين.

انتحيت أنا وأمي ركنا قصيا وجلسنا فيه نتقبل تعازي النسوة و تعاليقهن.

" يا حليلي يا بنيتي ما زلت صغيرة , أش ريت ما الدنيا , بنيتك صغيرة وكرشك على حلقك كيفاش مش تعمللهم "

" اسمع يلزمك تتعدى تحت النعش كي يخرجوه , باش الناس تعرف إلي خلاك حبلى ورد بالك ما تعملهاش هذيكة عوايدنا"

وأيدت أمي ما قلنه ...

عليّ المرور تحت نعش زوجي أمام كل الناس حتى أعطي شرعية لابني القادم وأحمي نفسي من أقاويل السوء وليس أسهل منها على ألسنة سكان منطقتي الريفية التي لا يدخلها الرب كما كان يقول زوجي .

كنت حبلى في شهري الأخير,طغى بطني على كل جسدي فصار ينوء بحملي وأرداني عاجزة عن الحركة وكنت أشعر بالوحدة حد الخواء فقد هالني الأمر.."ماذا أفعل ؟ من يدافع عني ؟ من يحميني من شر هذه العادة القديمة المتوارثة .. المرأة عندهم متهمة في كل الأحوال وعليها إثبات براءتها وتبديد شكوك معششة في خيالهم المتعفن ؟ ألم يقل لي زوجي أن داخل كل امرأة شيطان؟"

كان عليّ أن أثبت لهم أن لا شيطان بداخلي بل روح تشظت وهي بينهم وشارفت على اليأس...

أشفقت على نفسي عندما أمسكتني أمي من يدي لتمر بي تحت النعش المحاط بعشرات الرجال ,تحاملت على جسدي الثقيل ..حاولت أن أتماسك ...أن أظهر بمظهر المرأة القوية التي لا تكسرها الهزات ولا حتى الموت.. ولكني سقطت فاقدة للوعي ولم أفق إلا على خليط من المياه والعطر يغشي وجهي وعلى صوت أخت زوجي الكبرى التي لم أرها سوى مرة أو اثنتين في منزلنا تصرخ وتطلب مني مغادرة المنزل, فهو منذ اللحظة لم يعد لي ولم يعد لي فيه مكان.

كان زوجي قد غادر إلى مثواه الأخير وجحافل من الناس وراءه لوداعه بينما سجيت أنا مكانه وأحاطت بي العشرات من النسوة المواسيات وغيرهن من المهاجمات وعلى رأسهن أخت زوجي وأمه:

" أنت عرقوبك أحرف , كليتي راس خويا في عام ونصف , تحبي تزيدي تكملنا الكل ؟"

عاضدتها حماتي وسط استغراب بعض النسوة الحاضرات واندهاشي.. "هيا لمي دبشاتك وهزي روحك ريح السد..ماللي جيتي مارينا من جرتك خير ".

لم يطل الموقف الغريب كثيرا ولا حتى اندهاشي بما يحدث ..حركة غريبة مفاجأة قطعت علاقتي بما يدور حولي ..وجع شديد في أسفل بطني وكأن من بالداخل وقد شعر بكل ما يحدث لي يريد إنقاذي..

رغبة ابني في الخروج إلى الدنيا التي تركها والده تزداد حدة.. صار يركل بطني بشدة..

ازداد صراخي واختلط بصراخ حماتي التي تدفعني للخروج وصراخ بعض النسوة المحتجات وصراخ ابني الذي اندفع بين ساقي ليحميني من كل هذا الشر.

.

- 2

أنا مريض بالسرطان , في مرحلته الأخيرة .

هذا ما قالته التحاليل وأكدته صور الأشعة والرنين المغناطيسي الذين أخضعوني لها.

في البداية حاولوا أن يهونوا علي بإخفاء الأمر ثم عرفت الحقيقة بعد ذلك من الطبيب نفسه.

يقال بوجوب مصارحة مريض السرطان بمرضه حتى يعرف مصيره مسبقا ويحسن التعامل مع ما تبقى من حياته المعتلة.

أن تمرض بالسرطان يعني أن تبتلع آلامك وتلعقها بصمت ..

صمت ما قبل الموت الأخير.

أن تصاب بهذا المرض اللعين يعني أن تموت قبل موتك وأنت ترى دمعا في عيون من حولك يدارونه بضحكات شاحبة وكلام لا لون له ولا طعم .

أن يتوغل فيك السرطان يعني أن تبقى في المستشفى لا للتدواي وانتظار الشفاء ككل المرضى , بل ليحقنوك بذلك الدواء الرهيب فيزيدون معاناتك ويطيلونها ,فلا تصل إلى النهاية إلا وأنت منهوك منتهك تتمنى الموت في اليوم ألف مرة ولا تناله .

حتى أمي التي عشت طوال عمري القصير تحت قدميها , تركتني.

بعض الزيارات والكثير من الشفقة والغوغاء ..

ثم لا شيء .

أمي لا تحب زوجتي وجعلتني طوال حياتي الماضية لا أطيقها أيضا ..كنت أبتغي رضاها وتعويضها عن سنين الحرمان من أبي ..حرمانها من رجل يشعرها بالأمان والحماية ويطوقها بحنان دافق ويدللها كطفلة ما تزال

في سنوات عمرها الأولى..هذا ما كانت تحتاجه أمي ..هو ما تحتاجه كل امرأة من رجلها ..منحته لأمي وأنكرته على زوجتي ..

جاءت أختي لزيارتي عندما بلغها نبأ مرضي , بقيت معنا يومين ثم عادت إلى منزلها في القرية المجاورة مصطحبة أمي فهي امرأة كبيرة في السن تعاني العديد من الأمراض وتحتاج إلى من يهتم بها ويحرص على مواعيد أدويتها, لذلك خيرت الذهاب مع أختي لتعتني بها وتركتني أتلهى بحسبان الوقت الباقي والتحسر على الوقت الذي مضى..

وحدها زوجتي مريم بقيت إلى جانبي,في المستشفى وفي المنزل وأنا أتردد بينهما.

لا أدري إن كانت راضية ببقائها معي أو مرغمة عليه ..

ما يهمني هو أن مريم هي من رافقتني حتى موتي الأخير ولم تتركني في منتصف النهايات كما يفعل الجبناء..

مريم ..

لأول مرة أشعر بجمال اسمها وأهمية حضورها في حياتي , أقصد في أواخر أيام حياتي .

كانت جميلة,أبدا لم أتمل جمالها كما أفعل الآن , لم أنتبه له ولا لدفء روحها وسكينتها الضاجة عطاء وصبرا.

كانت طوال الوقت صامتة إلا مما يجب قوله لإطعامي أو إعطائي الدواء.

صمتها كان فصيحا.

سمعته جيدا حين كانت نوبات الحمى والوجع تصادر نومي وتقض مضجعي .

كانت تمرر يدها بلطف على جبيني تتلمس حرارتي وتحاول تخفيفها بشيء من المياه الباردة .

ينعشني ملمس يدها الطري أكثر فأستبقيها على جبيني , ثم أتلمس بها طريقا إلى فمي لأقبلها وأنا أطلب عفوا وغفرانا أعلم جيدا أنني لا أستحقهما منها.

" أعرف ألا شيء يغفر لي ما فعلته بك.

كم أتمنى أن تثوري وتظهري شماتتك بي , أن تتركيني وحيدا أصارع المرض اللعين والموت القادم على مهل ..أن تأخذي ابنتك وتذهبي إلى أمك وترميني خلف ظهرك لأعاني برد الوحدة و سعير الندم..

لن أغضب إن فعلت, فأنا لا أستحق وقوفك معي وأنت تغالبين القيء ووحم الحمل المزعج وإزعاجات مرضي.

كنت تسحبين يدك مني دون كلام .

لا تتحملين لمستي ولا قبلاتي ,أفهمك ...

لم أضع يدك في يدي ولا قبلتها إلا في مرضي الأخير. لو كنت فعلتها قبل اليوم لما كنت تسحبينها الآن .

يقتلني صمتك الموغل في البوح أكثر من انتظاري للموت...

❖❖❖❖❖

لم يكن زواجهما عن حب,رغم أن أحلام مريم في هذا الزواج كانت شاهقة كجبل.. حلقت عاليا على أجنحة

الوعود الكاذبة التي تكسرت منذ البداية ,سقطت من كل ذلك العلو وكان الكسر بليغا ..عصيا على الجبر ..

انتظرت كثيرا أن يتغير زوجها , أن يعاملها كما يليق بها ..كزوجة,كرفيقة درب ,كأم لابنته ..كامرأة جديرة بالاحترام ..

كانت تلمح الحب يتوهج في عينيه وهو يجالس أمه أو يلاعب ابنته ..كان قادرا على الحب..

كثيرا ما تملكتها الغيرة من حبه لعهد, تمنت أن تحظى ولو بالنزر القليل من حنانه ولكنه لم يكن يشعر بها , لم تكن في دائرة نظره ولا اهتمامه..

اتسع الخرق على الراتق... وتغيرت الانتظارات .

هو التوقيت الخطأ للأشياء.

نموت انتظارا لمن لا يأتي , نصرخ استجداء لكلمة تنفض عنا شراسة الوجع ولؤمه , وتضيع الصرخة في وادي اللامبالاة والتغافل والأنانية...

ينشبون مخالب الصمت فينا حين يجب الكلام فنموت وتموت فينا كل الأشياء الجميلة التي خبأناها لهم .

وحين يأتي دورنا في الصمت والتجاهل , يخرجون من سباتهم العميق ولا مخرج , فيكونون كمن ينفخ في "الجمر الطافي".

" لن أسامحه, قالت مريم .

لست شامتة به , هو والد طفلي, وها هو الآن يقطع خطواته الأخيرة نحو النهاية وسأوصله إليها وأسدل الستار على رحلة الخيبة هذه التي دامت أكثر من سنة ونصف .

في كل مرة أدخل إليه , كان يتوسل صفحي , فيتلبسني الصمت.

كان منتهى أمله أن أعاتبه,أن أعلن غضبي منه أو شماتتي,أن أقول له شيئا ..أي شيء ولكني آثرت معاقبته بالصمت ..فخيبتي فيه لا تكتبها الكلمات .. ماتت الأبجدية على لساني ...

أحرفي صارت بكماء ولا أريد لها أن تنطق ...

حتما, ستكون جوفاء مفرغة من كل المعاني والمشاعر.

3 -

مريم ,كانت البنت الوحيدة لامرأة طلقت مرتين.

كانت تعيش مع أمها وجدتها للأم في قرية صغيرة نائية عن ترف الحضارات وزيف المدن.

قرية ريفية تفتقر لأبسط ضرورات الحياة..يعيش أهلها ,فقراؤها كما أغنياؤها على ما تجود به أراضيهم الطينية من محصول زيتون ولوز صارت أشجارها جافة لقلة نزول الأمطار وانحباسها..

نزح أغلب رجالها وشبابها نحو مدن الساحل حيث تتمركز المصانع والنزل السياحية والفلاحة العصرية..فتزوجوا هناك من غير فتيات القرية واستقروا بعيدا عنها لا يزورونها إلا في الأفراح والملمات ..لذلك مكثت القرية على حالها ولم تشهد نموا في عمرانها أو حركية في اقتصادها إلا بعض المنازل المتناثرة هنا وهناك

وبعض المتاجر الصغيرة التي توفر الحد الأدنى من حاجيات السكان الأساسية..

ولكنها كانت تتميز بهدوء جميل وبجمال طبيعي متفرد..

لكل ظاهرة طبيعية فيها طابع مختلف عما عهدناه في المدن..

تغرب شمس يومها فتزفها ألوان قزحية تنتشر في السماء فتتملكك نشوة تحلق بك في سماء الأحلام والنقاء..يمكنك حينها أن تفتح عينيك في الشمس وهي تغرب خلف الشفق فترى في حمرتها القانية العيون التي تحب والوجوه التي تشتاق إليها..

يكتمل القمر في سمائها فتكاد تمسكه بيديك ..قربه الحميمي منك يجعلك تشعر أنه لا ينير السماء والأرض إلا لأجلك..

ومريم كانت فتاة في هدوء قريتها و بساطتها..

جميلة كزهرة لوز ..ارتوت من ظل الأرض فأورثتها لون القمح وسمرته وقدرة طاغية على الصبر والتحمل..

درست في الجامعة طيلة أربع سنوات .تسلقت سلم النجاح فيها دون تعثر ولا سقوط حتى لا تربك حياة العائلة بمزيد من التضحيات والمصاريف. فليس لفقراء بني وطني من طريق يسلكونه للحلم بحياة كريمة إلا طريق النجاح في الدراسة .كان هذا زمن كان للتعليم العمومي هيبته وقبل أن تدك صروحه قصد تضعيفه والتفويت فيه للقطاع الخاص.

عندما أنهت مريم دراستها في شعبة الحقوق, تعرفت أمها إلى أمه أثناء إقامتهما في إحدى المستشفيات.

❖❖❖❖❖

هو كان مدرسا بأحد معاهد الجنوب.شغوفا بمهنته رغم متاعبها .يدرس التاريخ لتلاميذه ويعنى,كعضو في النقابة الأساسية في معهده, بشؤون زملائه.

كان نقابيا متمرسا تهابه الإدارة والمديرين الذين عمل معهم لشراسته في الدفاع عن مطالب قطاعه وخطيبا فصيحا يبهر الأسماع في كل الوقفات الاحتجاجية والإضرابات التي يخوضها القطاع .

هو ينتمي لعائلة كثيرة العدد,قليلة ذات اليد.

يرزح تحت عبء دين عائلي والتزام عاطفي برد الجميل لمن نزعوا من أفواههم اللقمة ليهبوه بفضلها عملا وقيمة اجتماعية تختزل في ذلك اللقب الذي يسعده دوما سماعه "الأستاذ".

اكتفى الأستاذ بذاك اللقب الذي أفتكه من الفقر وانبرى يعمل على تحسين معيشة عائلته,فرمم منزلهم القديم وبلطه وأضاف إليه بعض الغرف ليسع الجميع, ومطبخا كبيرا يتسع للتجهيزات الجديدة .

وأثث المنزل بما يلزم فزرع في وجدان أمه البهجة وبعض الكبر و الغرور.

وكيف لها أن لا تتكبر على جاراتها اللواتي مازلن يصارعن الفقر فيصرعهن .. يسكن بيوتا آيلة للسقوط ويفترشن الحصائر والبسط المهترئة .

فلا غرابة أن تكثر مشاحناتها اليومية مع جاراتها .وقد كانت تخرج منها دوما منتصرة إذ جبلت على سلاطة في اللسان وحِدّة في الكلام لا تضاهيها فيهما جاراتها المنكسرات.

"من أنت لتستهزئي بكلامي أنا جبت الأساتذة أما أنت كان قعدت عاقر خير, أش عملولك الأولاد ؟"

كان ينتشي بأحاديث الشجار الذي تعيدها أمه على مسامعه فلا يلومها في ذلك ولا يردها عنه, بل يستعدي جاراتها اللواتي أزعجنها وأغضبنها وهي التي تعاني من الكثير من الأمراض المزمنة.

مدللته كانت والحاكمة بأمرها وأمره , لا يفعل شيئا إلا بعد إذنها ولا يرد لها كلمة ولا يعصي لها قرارا .

في خضم كل هذا تناسى الأستاذ نفسه رغم ثقل وحدته أواخر الليل وبرودتها الحارقة.

نالت سنواته الأربعين من قسماته فصيرته كهلا وغمر البياض سواد شعره وشاربيه الخفيفين فزاده وقارا , لم يكن يخلو من وسامة ذكورية محببة جلبت له الكثير من المعجبات..

كانت له القدرة على استمالة الجميلات دوما ..نبرة صوت آسرة وقوية في آن..وابتسامة دائمة لا تفارق شفتيه ..وكانت صفته النقابية عاملا إضافيا فتح أمامه حصون زميلاته فصرن يتوددن له ويحرصن على سماع كلماته التي تشي بتحضره وأفكاره التقدمية المبهرة..

تراه يتحدث عن المرأة وعن حقها كانسان في اختيار مصيرها كما الرجل ..عن حقها في الخروج إلى العمل فباستقلاليتها الاقتصادية ستنال حريتها وستقف ندا

لند أمام الرجل إذا ما داهمها بسطوته وطغيانه.. عن استعداده اللامشروط لإعانة شريكة حياته في العمل المنزلي ..فهو أمر لا يحط من قيمة الرجل بل يضيف إليها الكثير.. كانت كلماته تعشش في قلوب وخيال بعض زميلاته فصرن يتقربن منه يرمن صداقته ,علهن يحظين بأكثر من ذلك فمن كانت هذه مبادئه سيكون خير زوج وأجمل شريك في الحياة ,فكان يستغل هذا العامل ليظفر ببعض العلاقات العابرة مع بعضهن ..عابرة لأنه كان يعرف جيدا أنهن جميعا خارج دائرة المواصفات التي يرغب بها في الزوجة التي سيختارها وأسّها عدم اشتغالها خارج المنزل بالوظيفة أو بغيرها .فهو, بعيدا عن نظرته للمرأة ونظرياته في شأنها, يرى نفسه صاحب وضع خاص لا يرغب في زوجة يتناوبها تعب العمل في المنزل وخارجه فلا توليه وأمه المريضة ما يرغبان فيه من اهتمام ودلال.

زوجته هو يريدها متفرغة لعائلته قادرة على إنجاب ما يكفي من بنين وبنات يملئون حياته بهجة وتتحقق رغبة والدته في وفرة الأحفاد.

في ذلك الصباح, قرر أن يذهب لزيارة أمه التي ترقد في مستشفى الحبيب بورقيبة في مدينة صفاقس للعلاج اثر وعكة ألمت بها منذ أيام.

"لم أرها منذ أكثر من أسبوع ,انشغلت عنها بإصلاح امتحانات الباكالوريا ولم انته منها إلا بالأمس .

حصلت على مبلغ محترم يقيني شح انتظار الراتب وعناء السؤال المتردد دوما على ألسنتنا نحن رجال التعليم "صبوش"؟

لرجال التعليم ونسائه في بلادنا وضع خصوصي معمم على غالبيتهم. فخامة الاسم التي كانت مصدرا للزهو والتفاخر تدهورت بتدهور قدرتهم الشرائية وصار أغلبهم يرزح تحت نير الديون والقروض.

تغير المشهد اليومي حولهم دون أن يشعروا , تغيرت القيم وصودرت قيمتهم وتلك الصورة التي كانت حلم غالبية الأطفال ممن كنا نسألهم ذلك السؤال البسيط " أش تحب تولي كيف تكبر ؟" .

راتب الأستاذ أو المعلم لا يكاد يكفيه لأكثر من أسبوعين,وأظن أني مبالغة في ذلك,فغالبيتهم اقترضوا من البنوك لشراء سيارة أو بناء منزل,فتراكمت ديونهم عند العطارين وبائعي الخضر واللحم ومصارف مواد البناء ..

ولا تسل عن حال من كثر أبناؤه من زوجة عاطلة عن العمل فحتما ستصاب بسبب سؤالك بالاكتئاب وجميع أمراض هذا العصر التي لم نفهم أسبابها بعد..

لهذا كان علي سعيدا بهذا المبلغ الإضافي الذي جناه من إصلاح أوراق الباكالوريا فهو سينقذه من براثن لسان أمه إن تجرأ ودخل عليها ولم يحمل لها معه ما تيسر من غلال

وياغرت وقناني عصير, ودون أن يلفحها ببعض وريقات تلمع لرؤيتها عيناها وينبض لها قلبها المتعب.

كان المستشفى يعج بالزوار,هي الساعة الواحدة أو أقل قليلا ذات بداية صيف قائظ.

الباب الأزرق الكبير موصد,اصطف الأستاذ مع زمرة الواقفين محاولا حماية حمولته الثمينة من التدافع الذي أصبح على أشده باقتراب موعد الدخول.

اشتد القيظ فازداد التزاحم, سال العرق غزيرا من الوجوه الكالحة المهدودة انتظارا وصبرا وتعالت الأصوات المحتجة على هذا التأخير في فتح الباب أمام الزوار.

رفع الأستاذ يده ليمسح العرق بكمه ,اصطدم بكتف أحدهم فاختل توازنه وسقط من يده كيس الزيارة وتدحرجت علب الياغرت وحبات الخوخ والتفاح وكل حمولته الغالية بين أرجل المتدافعين .

❖❖❖❖❖

في ذلك الصباح,تعمدت التأخر في النوم,فساعات يومي القادمة موغلة في الثقل ينوء بذكرها جسدي المتعب سهرا وانتظارا.

الأشهر الأخيرة كانت عناء متواصلا مع المراجعة , أرى في أوراقي المتناثرة وكتبي المبعثرة في أنحاء الغرفة صدى أمنيات أمي وانتظاراتها التي طالت , بأن ترى شهادتي التي ستنقذنا من فقر استشرى فينا ووشم حياتنا بالحزن والانكسار.

أمي التي حرمت من الذكور في حياتها تمنت أن أكون ولدا وخاب التمني.

توفي والدها منذ صغرها حتى أنها لا تذكر صورته,وكانت هي أيضا وحيدة أمها لا أخا ولا أخت لها.

عندما تزوجت رجلا قبل أن تتزوج والدي طلقها بعد ستة أشهر فقط من الزواج , ربما لأنها لم ترق له ...

هي تقول أنها تجهل الأسباب,حين عاد بها إلى منزل أمها ذات يوم ورمى عليها اليمين ...

لم يزعجها الطلاق كما أزعجها أنها طلقت قبل أن تحمل منه بولد.

كانت الأمومة هاجسها الأوحد,تحلم بان تكون أما لطفل أو أكثر يملؤون حياتها و يسندونها في كبرها.

لهذا تزوجت من أبي رغم الفارق الكبير بينهما في السن...

أبي أيضا لم يمنحها الولد,سنوات ضاعت دون حمل وعندما ضاق ذرعا بالانتظار ولأنها لم تحمل من زوجها السابق تصور أنها عاقر فطلقها وتزوج غيرها..

وأتيت أنا بعد الطلاق بثمانية أشهر, لم تدر أمي في البداية إن كان عليها أن تفرح بمجيئي أم تحزن... ثم وجدت نفسها متعلقة بي معلقة علي الأماني الكبار في أن أنجح وأشتغل ثم أتزوج وأنجب لها الأحفاد.

❖❖❖❖❖

تثاقلت في النهوض وتباطأت وأنا أتهيئ للخروج من غرفتي للذهاب إلى الكلية وسماع النتيجة النهائية لصبر السنين الطوال.

وحتى أخاتل يومي المصيري هذا, وإمعانا في إحراج قدري وفرض طقوسي ,حرصت على التحلي بأجمل ما لدي من ثياب والتعطر بالقطرات الأخيرة من قنينة العطر الغالية التي أحتفظ بها للمناسبات السعيدة منذ سنوات."

واثقة هي بأن القدر لن يخذلها وهي تواجهه بهذه الإطلالة الأنيقة.

واثقة من هذا النجاح الذي بذلت في سبيله سنوات طويلة من الجهد والمثابرة وتغاضت لأجله عن الكثير من الصداقات الممكنة والحب الممكن والضحك الممكن ونضال الشباب الطلابي الذي كان يمكن أن تكون فردا منه.

أغمضت عينيها على كل ذلك وتعامت عن كل صولات شباب جيلها واضعة نصب عينيها نجاحا لا يضاهيه لديها شيء.

❖❖❖❖❖

تذكر أن أحد زملائها من المعجبين بجمالها الصامت وجديتها النادرة,عبر لها عن رغبته في صداقتها ..

كان رمزي لطيفا معها وهو يحاول أن يستوقفها أمام باب المبيت معلنا إعجابه بها.

شاب وسيم وهادئ , من أولئك الطلبة الذين يحرصون على الدرس وعلى الحياة ..يحبها بصمت منذ التحاقهما بالكلية في نفس السنة , والبارحة قرر أن يبوح لها بحبه وبرغبته الجدية في الارتباط بها بعد التخرج وها هو على الأبواب..

لم تعره اهتماما في البداية وواصلت سيرها إلا انه أصر على متابعة الحديث معترضا طريقها ليجبرها على الوقوف.

كان واثقا من قدراته على استمالتها متأكدا من شرعية مطلبه بحكم الزمالة والجيرة فالمبيت الطلابي

هذا يجمع في شقيه الذكور والإناث ولا يفصل بينهما إلا جدار وأبواب الدخول المنفصلة.

نظرت إليه من عليائها وكأنها تكتشف للتو وجوده , وببرود حارق امتدت يدها لتزيحه من أمامها بقسوة مواصلة طريقها دون أن تكلف نفسها حتى عناء الرد.

يومها كانت تعاني صداعا مقيتا صمد أمام الكثير من الأدوية المسكنة التي استعملتها منذ الصباح,أزعجها أن تحبس في الغرفة بسبب تطفله, فقررت معاودة الخروج علها تتخلص من صداعها وتتمكن من مراجعة دروسها"

وجدته أمامها ,كان لا يزال واقفا في نفس المكان,و كأن شللا أصابه فمنعه عن الحركة ..

تجاهلته وسلكت طريقا آخر مبتعدة عنه,إلا انه تبعها بإصرار محير,وكأنه يلاحق قدره ,حاثا خطاه للحاق بها عله يجد منها تجاوبا هذه المرة وقد ذهب في ظنه أنها عاودت الخروج لأجله, ربما لندم أصابها مما فعلته به.

لما سمعت صوته يتسلل من ورائها مواصلا نفس الحديث الذي صدته عنه منذ قليل, ازداد صداعها وتملكها توتر شديد لم تفق منه إلا على صوت الصفعة التي تركتها موشومة على وجهه المشدوه.

منذ ذلك اليوم, ابتعد عنها كل طلبة المبيت,أوجعهم ما حدث لزميلهم الصادق النبيل, نعتوها بالشرسة والمغرورة وألفوا عنها الكثير من الحكايات الغريبة ...

"ندمت عما فعلته بزميلي ولم أعرف حتى كيف جرأت على فعله,ولكني لم أعتذر له ولم يزعجني أن يبتعد الجميع عني , بل لعلي كنت أنشد بتصرفاتي تلك أن ينفض عني كل من يعيق تحصيلي العلمي وحصولي على الشهادة المبتغاة.

وهاهي حروف اسمي تنتشر عبر أبوق الكلية معلنة نجاحي وبتفوق فتحلق بي عاليا حيث أبواب الحياة المشرعة منذ اللحظة أمامي .

نجحت, ونجحت أمي ..وهذا هو الأهم."

❖❖❖❖❖

طرت إليها وفي عينيّ يرقص أجمل حلم نذرت نفسها له فصيرته بعنادها وصبرها حقيقة .

هي ترقد الآن في المستشفى لمرض ألم بقلبها المتعب وما أكثر القلوب المتعبة .

وصلت إلى المستشفى وقت اشتعال الظهيرة,كان الباب الأزرق الكبير موصدا والتدافع على أشده.

في البداية حاولت أن أجد لي مكانا قريبا من الباب , إلا أنني تفطنت بعد ذلك إلى غرابة هندامي وسط أناس برح بهم القيظ والانتظار,غارقين في الفقر وفي العرق .

لم أكن أقل منهم فقرا ولكني ,بأناقتي الصباحية التي حافظت عليها, كنت نشازا مريبا حتى أن البعض منهم صار ينظر إلي بتوجس وخيفة.

وحين خطوت بضع خطوات إلى الخلف مبتعدة حتى لا أثير انتباههم أكثر ,تعثرت قدماي برجل منكب على الأرض يجمع علب الياغرت وقنينات الماء والعصير التي

تناثرت منه كما تناثر شعره المبلل بالعرق على عينيه السوداوين ووجهه الوسيم.

كان المشهد مضحكا,فهو لم ينقطع عن قذف علبه بشتى أنواع الشتم والسباب طالبا ممن حوله أن يبتعدوا بأرجلهم قليلا حتى لا يدهسوا أشياءه المبعثرة .

وبدون أن أدري وجدتني أساعده وأجمع معه بعض قنيناته.

- 4

...تزوجنا..في نفس تلك الصائفة, بعد شهرين من ذاك اللقاء.

لا أدري كيف حدث ذلك ولماذا حدث.

كنت في ذلك التاريخ قد وصلت سنا لا أستطيع أن أؤخر فيه زواجي أكثر, كما كان الأمر هاجسا لأمي التي لا تريد أن تموت دون أن تحمل أطفالي بين يديها.

عندما نظرت إليها وهي تمد لي يدها بما سقط مني , رأيت ابتسامتها ,فبدت لي طيبة خجولة ووقعت من نفسي موقعا جميلا .

حملنا الرواق بعد أن فتح الباب إلى نفس المكان وتضاحكنا للمصادفة...

أمها وأمي ترقدان في نفس الغرفة...

ولكم أن تتخيلوا كيف حدث الأمر وقد باركته والدتانا الاثنتان بحماس شديد.

عندما تقدم لخطبتي , لم تفكر أمي كثيرا, الزواج رديف الشهادة ويقوم مقامها وأنت "مدعية بالخير" نلت كلاهما وفي نفس اليوم.

ولكنه اشترط أن لا أشتغل, فهل تقبلين بذلك يا أمي بعد كل انتظاراتك ؟

أمها لم تكن تريد فقط زوجا لابنتها الوحيدة, أمها كانت تشتري رجلا للعائلة, رجلا طالما تمنت أن تنجبه بنفسها وبما أن الأقدار عاندتها فعليها أن لا تهدر هذه الفرصة خاصة وأن العريس "أستاذ قد الدنيا"وسيسكنها في منزل أمه الواسع الجميل.فما الذي تريده لابنتها الوحيدة أكثر من ذلك..ستكون مطمئنة عليها مع زوجها الموظف والمثقف وحماتها التي تبدو طيبة ودودة ستكون أما ثانية لها تقوم مقامها في حضورها أو غيابها..

أنا أيضا لم أفكر كثيرا ,أنا أيضا أحتاج رجلا في حياتي , أمي صارت مريضة بالقلب وقد يطال قلبها العطل في أية لحظة فمن لي بعدها ؟

ثم من أدراني إن كنت سأحصل على عمل ,ففي كل سنة يزداد عدد العاطلين في بلادنا حتى أصبحوا بالآلاف وصار أمر تشغيلهم شبه مستحيل ,فالدولة ما تزال ضعيفة وعاجزة عن الانتدابات ولا تملك لهم حلا رغم مرور سبع سنوات على الثورة.

كما إني سأعيش في منزل كبير وأترك تلك الحقة التي ولدت فيها والتي بالكاد تتسع لنا, أمي وأنا .

وسيحمل عني زوجي كل المسؤوليات والأهم من ذلك سأحقق رغبة أمي وأنجب لها الكثير من الأحفاد الذكور.

علي لا يبدو سيئا , هو طيب ورصين بحكم سنوات عمره الأربعين.

سيكون لي الزوج والأب وسأحبه وأجعل من بيتنا جنة تطيب فيها الحياة, سأضع نفسي في خدمته وأوطنها على

طاعته وهكذا أضمن السعادة لي ولأمي ولأطفالي القادمين...

❖❖❖❖❖

تزوجنا دون ضجيج ,ولكن الضجيج ملأ حياتنا منذ الأسبوع الأول.

على قدر صمت زوجي وغيابه,كان ضجيج أمه وحضورها القوي.والأمران أزعجاني بنفس الدرجة في البداية.

كنت أصحو على صوتها الحاد توقظني منذ السادسة صباحا لأحضر لها الفطور, وأعد لها عالة الشاي.وأنام على نفس الصوت يحتج على دخولي غرفتي باكرا بينما تواصل هي السهر أمام التلفاز وحدها حتى وقت متأخر.

لم يكن السهر معها يستهويني وأنا المتعبة من كد النهار، أدور في المنزل الواسع لأهتم بأبسط شؤونه وأعقدها.

زوجي كان يعود متأخرا تسبقه رائحة الخمر والسمك العالقة بيديه وفمه وثيابه تعلن عودته وبداية عذابي الليلي.

بقدر ضعف زوجي أمام أمه,كان تسلطه معي , لا يسمح حتى بأن أشتكي له منها وأفرغ قلبي , يقول أنني موجودة معه بفضلها ولأجلها فقط ولا شيء مما سأقوله سيغير الأمر.

لم أكن أناقش كثيرا,كنت قد فهمت ذلك منذ أيامي الأولى معهم ووطنت العزم على أن أتماهى مع حياتهم بالشكل الذي يرغبونه..

أنا الآن لا أبحث إلا عن الهدوء في حياتي وعلى أن يمر يومي بدون مشاكل.

كان هذا أقصى أملي .

❖❖❖❖❖

زوجتي امرأة أكثر من عادية , شاردة الذهن وباردة, عدى عن أنها مطيعة ,خدومة ونالت رضاء أمي , لم يستهوني فيها شيء.

لم أتزوجها عن حب أو سابق معرفة ولكنها في لهفة البدايات الأولى لزواجنا , أعطت نكهة جديدة لحياتي وزرعت فيها بعض الفرح المرتقب ,ثم تتالت الأيام معها ثقيلة على القلب,رتيبة.

لم تكن مثل أمي صاحبة نكتة وتملك من الأحاديث ما يملأ لياليا بهجة .

كانت طوال الوقت صامتة ميالة للنوم والانزواء.

لهذا لم أكن أبقى كثيرا في منزلي وللحقيقة كنت أحلم قبل زواجي بأن أعيش فيه مع امرأة تستبقيني معها أكثر وقت ممكن وتجعلني أعود إليه بسرعة إن غادرته مضطرا.

و تبخر الحلم .

أعرف انه خطأ البدايات وأننا أبدا لن نجني السعادة معا.

أعود من عملي مرهقا مصدع الرأس , أتناول غدائي وأشرب بعض الشاي مع أمي, أستمع لشكواها اليومية من كنتها, فأهدئ خاطرها وأرفع صوتي محذرا زوجتي التي عادة ما تكون في ذلك الوقت غارقة في حوض المطبخ تغسل أواني الغداء,من مغبة العودة لتكدير صفو والدتي الغالية قبل أن أغادر لأروح عن نفسي قليلا.

لا شيء يبقيني في منزلي ولا شيء يعوض جلساتي خارجه.

خارج منزلي ينفتح أمامي عالم آخر, تزهر فيه الروح وتنتشي بمباهج الحياة ,عالم مليء هزلا وضحكا وغناء وشعرا وكل بواعث السعادة .

نجتمع كل ليلة , أنا و ثلة من الأصدقاء, بيننا المثقف والجامعي والموظف والعامل اليومي والعاطل عن العمل... مشاربنا مختلفة ولكن رغبتنا مشتركة في البحث عن الجانب المشرق من الحياة الذي غيبه فينا اليومي البائس.

أغلبنا يواظب على الحضور فلا شيء يضاهي هذه الجلسات متعة وجمالا. وعندما تبدأ السهرة , ننتشي طربا قبل أن يسكرنا الخمر.

❖❖❖❖❖

زوجتي لم تحمل بعد...

أخذتها هذا الصباح إلى طبيبة التوليد وأمراض النساء ,لم يعد في العمر الكثير لأصبر على هذا الأمر.

الطبيبة أكدت أن لا شيء يمنعها من الحمل وطلبت مني القيام ببعض التحاليل .

"وهل تصدق كلام الأطباء, قالت أمي , أنا متأكدة أن العيب منها هي وليس منك أنت راجل وسيد الرجال ".

- لن أقوم بالتحاليل, وسأنتظر بعض الوقت ثم أرى ما يجب فعله إن لم تحمل.

- لا تقلق يا ولدي ,سأزوجك غيرها, وستكون أجمل منها وأصغر سنا, لم أرها يوما تضحك, لا أدري ما الذي أعجبنا فيها هذه العاقر.

كنت أسمع كلامهما من وراء النافذة , لم أكن أتصنت عليهما فهما لم يتكلما همسا ولا حاولا إخفاء ما يقولانه عني.ولم أعلق على ما يدور بينهما .

صرت أكثر صمتا وأكثر قدرة على ابتلاع لساني.

مر على ذلك الحديث أكثر من شهرين, عندما بدأت بوادر الحمل في الظهور,و بدأت معها إزعاجاته.

- عليها بالراحة التامة حتى نستطيع المحافظة على الجنين .قالت الطبيبة.

وعدت إلى البيت .

لم أتمدد بعد على فراشي حين دخلت حماتي غاضبة :

"لقد تأخرت في العودة ولم تعدي بعد طعام الغداء فهل سنتناوله أواخر العصر ؟"

تدخل زوجي لأول مرة لصالحي وطلب من أمه بكل لطف أن تتركني أرتاح قليلا . فأنا مريضة تعاودني نوبات القيء والدوار والطبيبة نصحتني بالراحة التامة.

" مالا عاد مش تبدى توة في الدلال , ياخي كان هي حبلت والا منعرفوهوش ؟"

خرجت من الغرفة تغلي كمرجل وحلفت بأنها لن تطبخ الفطور فتبعها علي يلاطفها ويخبرها انه سيأتي بدجاجة مصلية شهية وما تبعها لغدائهم فسكتت على مضض.

جاءت أمي لزيارتي في نفس اليوم , لم اعد أراها كثيرا , هي تتجنب المجيء إلى بيتي تجنبا لمشاكسات حماتي معها .

أمي نحلت كثيرا وشحب وجهها , نوبات الوجع تعاودها بين حين وآخر وصار عملها كمعينة منزلية لدى إحدى العائلات الغنية في المدينة المجاورة , عبئا عليها .

حين دخل علي الغرفة سمعها تشتكي وحشة المنزل بدوني .

وعلى غير انتظار ولا توقع سمعته يطلب منها المجيء للسكنى معنا .

- يا وليدي أنا "ماضابيا و مشتهايا" أما ما نحبش نقلقكم .

- لا يا فطومة ما فماش قلق, هاك بحذانا مونستنا.

تركت أمي عملها وأقامت عندنا .

كنت ألاحظ تعبها وهي تقوم مقامي بالبيت , تكنس وتنظف وتطبخ وتضع الطعام أمام حماتي "عالة الشاي" .

ولكنها رغم كل ذلك كانت سعيدة وهي ترى انتفاخ بطني وصمود حملي .

كانت تقول أنه ولد وأنها تدرك ذلك من شكل بطني.

" سأموت وأنا مطمئنة عليك وهو معك , سيكون سندك وحاميك وسيحمل نعشي إن أطال الله عمري حتى يكبر."

كانت أمي تشعر بحزني وبآثار الخيبة المرسومة أبدا على وجهي.

"عندما تلدين سيتغير زوجك , سيحب ابنه وسيهتم بك لأجله .انه ليس سيئا ألا ترين شدة اهتمامه بأمه وبره لها."

كانت تصبرني وتصبر نفسها فهي لم تكن أقل مني خيبة ولا حزنا.

❖❖❖❖❖

عاد علي ذات مساء من عمله مرهقا ومكدرا.كانت الكآبة والغم يبدوان عليه منذ أيام خلت . ولكنه أبدا لم يكن يشاركني مشاكله .

يدخل المنزل بعد غياب يوم كامل في العمل ثم في المقهى فيجلس إلى أمه يتحدثان ويشربان الشاي ثم يعاود الخروج ولا يعود إلا أواخر الليل .

عندها فقط يدخل إلى غرفتي , يلقي التحية ويلقي بنفسه علي لينغمس بعد ذلك في نوم يقطعه صوت شخيره وحشرجة تنفسه وتأوهاته حتى الصباح.

لم أكن أنام , إضافة إلى قلقي وأوجاع حملي ,كانت الأصوات التي يصدرها وروائح الخمر التي ينفثها في وجهي تقرفني منه.

كنت أمضي الليل وأنا أنظر إليه في ملء وجهه النائم , أتملى قسماته التي صارت قاسية وأساءل نفسي , لم رميت بها في هذا المستنقع الآسن ؟

لم ارتميت في حضن هذا الزواج البارد ؟

لم لا يحتوينا هذا الفراش معا إلا وهو على هذا الوضع المقزز؟

أسئلة موجعة تتهاطل علي وأنا لا أملك أجوبة لها .

ألم أكن أبحث عن الأمان بهذا الزواج ؟ فأين هو الأمان ؟

الأرض في هذا المنزل تهتز تحتي ولو لم يكن هذا الحمل لما بقيت هنا ...

ولم أريد أن أبقى هنا؟

أنا لست سعيدة , بل أنا لست أنا , لم أعد أعرفني . انطفأت جذوة الحياة في جسدي وقلبي وتلبسني الحزن والوجع على مصير طفلي الذي لم يولد بعد..

.

أم منكسرة وأب غير مسؤول يهدر حياته وطاقته في الشرب ولا يهتم ببيته ولا بزوجته .

انه خطأ البدايات...

الزواج الذي بني على خطأ سيكون عقيما وإن أنجب فلن ينجب إلا التعاسة.

❖❖❖❖❖

لم يكن مر على دخوله الوقت الكثير عندما سمعنا طرقا كثيفا على الباب .خرج علي متثاقلا لاعنا الضيف الثقيل الذي أجبره على النهوض من على ركبة أمه.

كان أحد التجار مصحوبا بعدل تنفيذ وبعض أعوان الشرطة يريدون تنفيذ عقلة على أثاث البيت وما يملكه عليا .

فهو قد ماطل في دفع دين له لفائدة هذا التاجر فاضطر إلى مقاضاته واستصدار حكم بالعقلة .

وقف علي في ساحة المنزل ذليلا منكسرا لا يستطيع حتى رفع رأسه بينما دخل العدل وبعض الرجال الغرف يحملون قطع الأثاث وسط ذهول زوجته ودموع أمها .بينما أغلقت والدته غرفتها مانعة إياهم من حمل أي شيء منها مشيرة لهم بحمل غرفة نوم ابنها

فهي مازالت جديدة وثمنها مرتفعا , ربما كانت هي نفسها سبب الدين .

عندما اقتربوا من غرفتي وقفت أمي متصدية لهم ,قالت إن هذه غرفة ابنتها وإن ابنتها حامل ومريضة وأنها لن تسمح أبدا بلمس أي قطعة من أثاثها لحمله خارجا .ثم طلبت من التاجر أن يخبرها بقيمة الدين و تعهدت بخلاصه عوض عن علي .

ربما رق التاجر لحالي وهو يرى دموعي المنحبسة على جفوني ويدي الموضوعة على بطني تحمي ابني القادم من سوء المصير, وربما لامس موقف أمي شغاف قلبه واستشعر صدقها فقرر أن يمنحنا تلك الفرصة .

عادت قطع الأثاث إلى أماكنها وعادت أمي لعملها في المدينة المجاورة لتسدد دين زوجي .

❖❖❖❖❖

عادت أم مريم إلى منزلها بعد ولادة ابنتها بستة أشهر , أنجبت بنتا جميلة رقيقة كملاك وأسماها والدها "عهد".

"عهد التميمي" , الأيقونة الفلسطينية,تلك الشابة الشقراء الجميلة التي صفعت الجندي الإسرائيلي فصارت رمزا للمقاومة والتحدي.

حين شاهدها علي على شاشة التلفاز وكل أحرار العالم يطالبون بإطلاق سراحها , قرر أن يسمي ابنته القادمة باسمها كالكثير من دعاة الحرية والنضال من المؤمنين بالقضايا الإنسانية العادلة .

"لم عدت وتركت ابنتي ووحيدتها في سجنهما ذاك ؟

أنا من شجعها على الزواج منه صرت أدفعها إلى تطليقه ولكنها تأبى.

لا أعرف من أين أتت بتلك القدرة على التحمل , كأنها تعاقب نفسها على فشلها في الاختيار.

ولكن هل هي من اختارت زوجها ؟ ألست أنا من دفعها إليه وكأني أدفعها إلى حتفها ؟"

في أحيان كثيرة تطوح بنا الحياة في مسالك لم نكن نتخيل أبدا أننا سنسلكها ,وترمينا في أماكن لم نكن أبدا نتصور أننا سنسكنها, تدفعنا دفعا إلى مصائرنا,ننطلق نحوها متصورين أنها السعادة المرجوة , كل الأشياء تجعلنا نعتقد أننا أخيرا سنحط الرحال في بر سعادتنا التي طال أمد انتظارها , نستعد لها بكامل زينتنا واندفاعنا لنصدم بأن كل شيء يأخذنا إلى دمارنا النفسي الشامل إلى الطريق الخطأ إلى الشخص الخطأ والتوقيت الخطأ.

ويتآكلنا الندم ونتمنى أن يعود بنا الزمن إلى الخلف , إلى نقطة معينة من عمرنا نود لو لم نمر بها , فيتغير الخيار وتتغير الشخوص لتتبدل الأقدار وننأى بقلوبنا عن الكثير من الوجع والخيبة .

طبعا لا نستطيع العودة بالزمن لتغييره ولكننا حتما نستطيع إيقاف المسرحية الفاشلة , إسقاط الأقنعة عن وجوه الممثلين السيئين, طردهم من مسرح حياتنا وإقفاله دونهم ثم الانطلاق من جديد .

❖❖❖❖❖

منذ عودة أمي إلى منزلها صار الحمل كبيرا والمنزل أكثر ضيقا. وحشتي فيه لا يبددها إلا وجود ابنتي عهد التي تكبر كل يوم أمامي وهي تحاول المشي فتسقط باكية وتحاول الكلام فتصدر أصواتا مضحكة تملأ القلب أملا ووعودا بأنه مازال هناك متسع للفرح.

كانت جميلة كنجمة في ليلة صيفية , رقيقة كوردة صباح ندية .

كانت الجامع الوحيد بيننا.. نشترك في حبها أنا وزوجي.عدى ذلك فلم يعد شيء يجمعنا بعد سنة ونصف من الزواج أو أكثر قليلا .

أمي تريدني أن أتركه ولا تفهم لم أزداد تشبثا بهذا الزواج المتقيح كدمل ينز صديدا ودما كلما أوغلت يدك فيه .

أمي لا تفهم أني لا أريد أن أورث يتمي لابنتي حتى لا تجد نفسها يوما في نفس وضعي وأن تجبر على الزواج من أول متقدم فقط بحثا عن صورة الأب الغائب .

سأتركها تعيش مع والدها الذي يحبها ولن أحرمها حنانه.

في الكثير من الأحايين أبقي مشدوهة وأنا أراقبه يلاعبها.

في حضرة ابنته , يتحول زوجي إلى رجل آخر, لا أعرفه.

ابنتي فقط من تمتلك مفاتيح قلبه وجنته , تفتح أبوابها وتنهل من عبق دفئها ومن شذى رياحينها.

فجأة تلمع عيناه كسنا البرق وتنطلق ضحكاته فتفتح أبواب السماء.

ذلك الحب الذي يغدقه عليها بسخاء إلى درجة يشتد معها الظن حتى يوشك أن يستحيل يقينا بأن قلبه لم يتحرك الا لها ولم يحب سواها.

ومع ذلك لم يغير من سوء معاملته لي , أنا أمها ,ولم يحبني ولو بقطرة واحدة من كل ذلك الفيض.

❖❖❖❖❖

ذات صباح, لم أستيقظ كعادتي لأهتم بابنتي وأعد فطور حماتي وشايها.

ليلتي السابقة كانت سيئة لوجع أصاب معدتي ورأسي فلم أستطع النوم.

كان زوجي الذي بات سكرانا كما كل ليلة, قد سبقني إلى النهوض وذهب كعادته إلى غرفة أمه بعد أن قبل ابنتي النائمة إلى جانبي .

كنت ما أزال أتراخى عن النهوض وقد لازمني الوجع الذي لا أعرف مصدره, عندما عاد زوجي .

حمل ابنته وخرج بها إلى غرفة أمه ثم عاد ليقفل غرفتنا علينا.

ما زلت أحاول استيعاب ما حدث.

نزع علي حزام بنطاله وانهال علي ضربا وأنا ممددة على السرير لا أعرف كيف أحتمي منه .

كنت أتلوى لفرط الألم والمفاجأة.

ضاع صراخي وتاهت توسلاتي في حمى جنونه .

كان يشتمني ويصمني بأبشع النعوت على وقع ضربات حزامه الحارقة على جسدي المريض.

وفجأة توقف الحزام عن الضرب ورمى به جانبا ليسحبني من شعري ويجرني حتى المطبخ .

كانت أمه واقفة أمام غرفتها تتابع ما يحدث وكأنها تشاهد فلما في التلفاز..لم تتدخل..وازداد وجعي وإحساسي بالغبن ..

في المطبخ أوقفني طالبا أن أجهز فطور أمه الصباحي وهو يحذرني بصوت أراده متقطعا ليؤكد كل حرف من كلماته من مغبة العودة إلى التراخي في أي شأن من شؤون أمه..

عندما تركتني يداه أخيرا انهرت وانكفأت على وجهي لأسقط على طاولة المطبخ ثم على الأرض.

❖❖❖❖❖

حين أفقت وجدت نفسي في سرير بالقسم الاستعجالي لمستشفى المدينة المجاورة .

كانت أمي عند رأسي بوجه دامع وسحنة حزينة.تقرع نفسها باللوم والدعاء لأنها تركتني وحدي فريسة جنون زوجي وساديته المخيفة.

أخذني إلى المستشفى عندما غبت عن الوعي وقبل ذلك مر على منزل أمي ليأخذها معي .

قال إنني سقطت من على سطح المنزل ولكن أمي لا تصدقه وما تزال تحرضني على التشكي به إلى الشرطة.

كنت في اللحظة التي دخلت فيها الممرضة إلى الغرفة أفكر جديا في الأمر.

سأشتكيه إلى الشرطة ولن أبقي بعد اللحظة على ذمته.

سأرفع دعوى طلاق للضرر تؤيدها الشهادة الطبية التي سأحصل عليها من المستشفى .

من السهل أن يثبت الأطباء أنني تعرضت إلى الضرب المبرح والعنف الزوجي وهذا كفيل بسجنه وتطليقي منه .

سأتحرر منه..وأسجنه حتى لا يتجرأ علي ولا على أي امرأة أخرى فيعنفها ..سأربيه..نعم سأربيه حتى لا ينطق لسانه بما يحط من قيمة امرأة كرست نفسها لخدمته وأمه فكافأها بسيل قميء من الكلام الجارح كحد السيف..

كيف يمكن لأي شخص يمتلك القدرة على الكلام الجميل والمنمق أن يخرج من فيه كلاما قذرا يرميه كالقنابل في وجه امرأة مريضة وعاجزة عن رد الفعل ..أين رجولته بل أين ثقافته وايمانه الذي يتشدق به دوما بأنه والمرأة "رفيقان دوما إلى أن ينام القمر"؟

نام القمر في بيت زوجي منذ أيامنا الأولى و لم يستيقظ بعد وأظنه لن يستيقظ أبدا..لهذا سأشتري نفسي ولن أبيعها من جديد إلى أي رجل.

لدي ابنتي وأمي وسيعيد التاريخ نفسه ولن يكون مأساة هذه المرة .

المأساة أن أبقى معه , أن أتيح له مرة أخرى استعبادي, أن أبيح له قتلي مرتين .

– مبروك يا مادام , أنت حامل .

هكذا سمعت الممرضة تقول .

توقفت أمي عن الدعاء وتلبسها الصمت والدهشة .

امتدت يدي المخضبة بدمائي بدون شعور مني نحو بطني تتلمسها.

سيكون لي من هذا الرجل طفلان.

سألد له طفلا آخر , سيحبه , سيفتح له أبواب قلبه ويوصدها دوني.

طفلاي ليسا بذرة حب,ولا حتى مودة...

هما بذرة ليلة سكر وعلاقة تشبه الاغتصاب لا متعة فيها ولا انتشاء .

هما طفلا "خطيئة"...

خطيئة تستمد شرعيتها من ورقة يخطها كاتب عدل بمقابل,خطيئة يباركها المجتمع ويحتفل بها الناس ,

تسمح للزوج باستعباد زوجته واستعمالها كآلة للمتعة والإنجاب أو كدابة تركب وتضرب وتهان.

مازلت أتلمس بطني وما زالت أمي تواصل صمتها المشدوه عندما دخل والد أبنائي متهلل الأسارير كما لم أره من قبل .

اقترب زوجي من سريري ليقبلني من جبيني بحنو المحب وهو يقول بصوت دافئ "مبروك عزيزتي ، ربي يوصل بالسالم ".

- 5

عادت زوجتي معي إلى المنزل , اعتذرت منها لما عرفت بأمر حملها .

أعترف أنه ما كان يجب أن أضربها بتلك الطريقة وإن كانت من يستفزني لأفعل .

شؤون أمي خط احمر وطالما كررت تنبيهها ولكنها لم تلتزم.

أنا ضد العنف بشكل عام وضد تعنيف المرأة بالذات .. ولكن زوجتي عنيدة ولا تطيع أوامري ,تراخيها عن القيام بواجباتها تجاه أمي يثير جنوني..ألا يكفي أمي عذاباتها السابقة مع والدي ..آليت على نفسي منذ وعيت بسوء معاملة أبي لأمي أن أسعدها ما استطعت وأن أعوضها كل ما ذاقته على يد والدي ولكن زوجتي لا تساعدني

على ذلك فأجدني مضطرا لفرض ذلك عليها بكل الإشكال..

على كل حال هي تعودت الأمر وتقبلته , فأنا لست أول أو آخر رجل يضرب زوجته , ثم إن المرأة تتربى مرتين.. مرة في بيت أبيها والأخرى في بيت زوجها وليس عليها إلا أن تستقيم لتتجنب غضبي .

وهاهي تعود معي رغم رفض أمها وسأسعى لتحسين علاقتنا من أجل أن يصل ابني القادم سليما معافى.

❖❖❖❖❖

منذ عودتي إلى المنزل لم تزرني أمي .هي غاضبة مني و أنا أعذرها.

أنا أيضا غاضبة من نفسي , قبلته تلك الحانية في المستشفى خدرت جراحي وزرعت أملا في تغيره...

بذرته النابتة في رحمي وصورة ابنتي التي تتعثر في خطواتها الأولى جعلاني أقسو على نفسي وأمحو كياني كأنثى و كامرأة لها كرامة لتتضخم صورة الأم في ذهني ...

أنا فقط أم وطفلاي هدفي ومصيري , لن أستسلم بسهولة وسأحاول حتى أخر أمل أن لا يشعرا باليتم الذي وشم كل حياتي ..

سأبقي معه من أجلهما , سأسامحه وأفتك لهما فرصة أخرى ليعيشا سويين .

مر شهر على عودتي من المستشفى , نعمت فيه ببعض راحة وأوشكت جراحي على الاندمال.

أنام في غرفة نومي مع ابنتي وينام زوجي في غرفة أمه.

في البداية قبل علي بالأمر على أنه ظرفي فأنا مريضة وفي بداية حملي.

زوجي المتفهم , لم يفهم أنني إن عدت فليس من أجله , وإنني مازلت هنا لمجرد كوني أما لابنته وطفله القادم.

استباحته لي واستخفافه بي صيراني زوجة على الورق.

أبدا لن أترك اليد التي ضربني بها تمتد لتطوقني من جديد .

واشتعلت الحرائق ,وقودها الخمر ولسان أمه.

ووطنت عزمي على المقاومة .

قاومتهما معا بالصمت والصبر والاستماتة على موقفي.

أوصدت دونهما باب قلبي وأذني وباب غرفتي.

يعود مخمورا آخر الليل فلا أفتح له باب الغرفة,تختلط التوسلات بالسباب والشتيمة ..

في البداية لم يكن يريد لأمه أن تعرف بما يحدث بيننا , لذا كان صوت شتيمته خافتا وتوسلاته ذليلة.

وانتبهت أمه للأمر.

وقفت أمام غرفتها ذات ليلة تترصد رد فعله وهي ترى وقفته المرتبكة وبابي الموصد من الداخل .

تغير الوضع وصار لزاما عليه أن يثور لرجولته المنتهكة , فهاج وعلا صراخه وتتالت ضرباته على الباب عنيفة تحاول كسره .

أفاقت ابنتي منزعجة وبدأت في البكاء.

كنت لا أعرف ما أفعله , هل أفتح له الباب حتى يهدأ ؟

أم أتركه يحاول فتحه حتى ييأس منه ومني ؟

كنت ما أزال أصارع ارتباكي وخوفي عندما انفتح الباب واندفع إلى الداخل ليأخذ ابنتي من بين يدي و يعطيها إلى أمه التي دخلت وراءه ويبدأ في تعنيفي وضربي بكل شراسة ونعتي بأقذع النعوت والصفات .

تركته يفعل حتى هدأ ثم غادر الغرفة هو ووالدته بعد أن وضعت حفيدتها التي ما تزال تبكي في فراشها .

ما فعله بي زوجي أمام أمه لم يكن سوى ردة فعل رجولة سحقت أمام باب أنثوي مغلق .

كان عليه أن يثبت لها ولنفسه أنه رجل وأنني سبيته لا أملك أن أعصى أوامره أو أغلق في وجه رغباته

الباب.وأنني, وقد فعلت , أستحق العقاب والضرب المبرح حتى لا أتمرد ثانية عليه.

عاد بعد ثوان من مضيه ليقول بنبرة تقطر حقدا..

- سأبيت في غرفة أمي الآن , لا رغبة لي بك الليلة ولكني أريدك الليلة القادمة عروسا في كامل زينتك وان لم تفعلي فستكون آخر ليلة في حياتك.

لم أستطع النوم,كانت الساعات طويلة مملة, أجهدت تفكيري وجسدي المثقل بالأوجاع .

لا أعرف حتى متى ستستمر قدرتي على المقاومة وأخاف أن تخذلني قوتي التي لا أدري من أين أتيت بها.

بت أميل إلى إعلان فشلي والنأي بنفسي عن هذا الصراع والقبول به في الليلة القادمة لتجنب شره أو الخروج النهائي من المنزل والانفصال عنه ...

وأمضيت الساعات الباقيات من الليل أتأرجح بين مسلكين أحدهما أمر من الآخر...

صباحا,لم أره إلى جانب أمه كعادته.

كانت في سقيفة المنزل تطبخ الشاي .

منذ عدت من المستشفى صارت تحضر فطورها وشايها بنفسها وإن لم تخف حنقها من ذلك كلما رأتني.

في ذلك الصباح طلبت مني وعلى غير عادتها أن أدخل إلى غرفتها لأتفقده , تقول أنه لم ينم جيدا البارحة وأن حرارته ارتفعت حتى أنه لم ينهض لعمله.

طبعا أرفقت طلبها ذاك بوصلة من الدعاء على من كان سببا في تكدير صفو ولدها وحرمانه من المبيت في فراشه ككل الرجال.

ترددت قليلا في الدخول إليه بسبب دعائها وبسبب ما حدث منه البارحة ثم دخلت..

قررت أن أواجهه بقراري ..

لن أبقى معه..علينا إيجاد صيغة للانفصال بدون مشاكل..

لن أطلب منه شيئا لي ..فقط ما يحق لأبنائي منه وسأنسحب بهدوء..

فتح عينيه على وقع أقدامي .كانتا متورمتين حمراويين بلون الدم .شيء ما في وجهه كان مختلفا , قسماته كانت منطفئة .

وهو يحاول النهوض من فراشه خذلته قدماه وترنح يوشك على السقوط..

اندفع جسدي في اتجاهه وسندته يداي وساعدتاه على العودة إلى الفراش .

قال انه ليس على ما يرام وبصوت خافت مجهد حملني مسؤولية ذلك.

لم أجبه وغادرت الغرفة لأجلب له فطور الصباح وبعض الدواء للصداع.

أجلت حديثي معه حتى تتحسن صحته..

كان قلبي باردا كجليد لم تتحرك نبضاته خوفا ولا شفقة.

تلاشت كل الأحاسيس ولم يعد لها نبض ولا صدى. فرغ قلبي منه..لم يعد له فيه مكان..ماتت الصورة التي

رسمتها له فصارت جثة متعفنة لا تفرز الا روائح كريهة لذكريات ألمي وعذاباتي وخيباتي التي أراها في عينيه كل يوم .

أجدني أتحرك صوبه كآلة مشحونة سلفا لألبي طلباته وطلبات أمه التي جلست حذوه وبدأت في وضع كمادات باردة على رأسه.

لم يأت المساء إلا وقد ساءت حالته.

اتصلت أمه بأحد الجيران وطلبت منه أن ينقله إلى المستشفى .

وبدأت الرحلة ..

رحلة السرطان وقد عشش في كامل جسده وأحاله على الموت اليومي المتجدد من جهة ورحلة عذابي وأنا على تلك الحال من الضعف والمرض, أرافقه في تردده على المستشفى من جهة أخرى..

وسرى الخبر بين الأصدقاء والمعارف وهم كثر.. وتتالت الزيارات اليومية ..

ما فعله معه أصدقاؤه ورفاقه في الجامعة العامة للتعليم الثانوي لم يكن عاديا .

كانت زياراتهم تسليه وترد إليه روحه.

أغدقوا علينا طوال مرضه الكثير من المساعدات والنقود. بوجودهم لم يحتج زوجي المريض شيئا ولم ينله. لم يضطر كأغلب مرضى المستشفيات العمومية, إلى انتظار صور "السكانار" أو نتائج التحاليل بالأسابيع والأشهر. كنا نقوم بها خارج المستشفى ونتحصل على نتائجها سريعا..

وقد تعاظم سخاؤهم إلى درجة أن اكتروا لنا شقة في إحدى المدن الساحلية بجانب المستشفى للخضوع لحصص العلاج الكيميائي دون أن يضطر إلى التنقل وهو على هذه الحالة من الوهن والتعب.

كنت متعجبة من هذه الحظوة التي نالها عندهم فأخبروني بما ألجمني وكبل لساني عن الشكوى.

سنة ونصف السنة أو أكثر أمضيتها مع هذا الرجل ولم أر شيئا مما تحدثوا به عنه .

أعرف أن الحياة لا تعطينا ما نحب وأن من يحبوننا هم من يعطي معنى لحياتنا.

وزوجي لم يحبني ,لم أشعر يوما وأنا معه بلذة الحياة بل معه فقدت كل حواسي ودفنتها في غياهب النسيان.

أردته وطنا أسكنه ويسكنني فوأدني حية في مقبرة الإهمال.

فعمن تتحدثون ؟

- 6

كان علي فارسا من فوارس النضال, يذود عن زملائه ويبذل في سبيلهم ماله ووقته وجهده .

يحب تلاميذه كما يحبونه وعدد من كان يساعدهم على مواصلة الدراسة ويدعمهم ماديا ومعنويا لا يحصى ولا يعد..

تربى على العمل النقابي منذ التحاقه بالتدريس منذ أكثر من عشر سنوات وزاد اهتمامه به في الأزمة الأخيرة بين الأساتذة.

يقضي يومه في التنقل بين المعهد ومقر الاتحاد الجهوي بصفاقس أو المحلي بجهته.ينظم اللقاءات والاجتماعات ويهيئ لزملائه سبل التنقل إلى العاصمة للقيام بتلك التجمعات الضخمة والوقفات الاحتجاجية التي

لم تشهد لها البلاد مثيلا منذ الثورة . تواترت تحركات الأساتذة طوال ثلاث سنوات أو أكثر وزاد تعنت الوزارة بقيادة وزيرها الفاشل من عمر الأزمة .

في الأثناء كان علي محاربا شرسا,لم يتوان يوما عن الحضور أو المشاركة بالمال أو الجهد في كل التحركات.

كل جلساته في المقهى يقضيها في إقناع بعض الأولياء المصطفين مع الوزارة بشرعية تحركاتهم وبأن عليهم مساندة القطاع في الدفاع عن المدرسة العمومية وإصلاح التعليم , فالهم مشترك والقضية واحدة , عدم التفويت في التعليم للقطاع الخاص الذي بدأ يتغول وقريبا ستصبح المدرسة العمومية بمؤسساتها المتآكلة والآيلة للسقوط حكرا على أبناء الفقراء.وأما أبناء العائلات الموسرة فقد هجروها منذ عقود .

❖❖❖❖❖

سمعته ذات مساء وقد خيل لنا أنه استعاد عافيته, يتحدث عني .لم أصدق ما سمعته .

" زوجتي أجمل ما وهبني الله,بنت حلال و"رجلة" ,تهتم بأدق تفاصيل مرضي وشؤوني رغم اعتلال صحتها , لم تتركني لحظة وقد تخلى عني الجميع في محنتي , أقصد أمي وأخواتي.

تركت ابنتها لتعتني بها أمها وتفرغت هي للعناية بي .

البارحة فقدت وعيها وهي تحاول حملي إلى غرفة الاستحمام ولما استعادته , واصلت اهتمامها بأمري وكأن شيئا لم يكن.

صرت خائفا أن تفقد جنينها قبل أن يصل وصرت خائفا أن أموت قبل أن أراه .

لو تعود لي صحتي لحلقت بها إلى عوالم الجمال الرحبة ولعوضتها عن الفرح الذي سرقته منها .هي تستحق كل الخير الذي حرمتها منه بأنانيتي المفرطة .

هكذا نحن ..لا نشعر بأهمية من نتشارك معهم حياتنا الا بعد فوات الأوان..عندما يبتعدون نقترب ..نحن من نُبعدهم عنا ..

نزداد غباء كلما ازداد تركيزنا على أنفسنا فلا نرى غيرها في دائرة نظرنا ..نتصور أن تلك طبائع الأمور وأن من امتلكناه بإرادته لحظة سيبقى طول العمر طوعا لنا ..

أنا أعلم جيدا أنني خسرت حب زوجتي واحترامها لي منذ اليوم الذي أهنتها فيه وامتدت يداي نحوها لتضربها وانطلق من لساني ذلك السيل من الكلام الغبي ..

انتظرت مني ما لم يأت ونالت ما لم تنتظر ..فكان الخذلان قاتلا.. والخسارة أبدية."

❖❖❖❖❖

وعي زوجي الذي ارتد إليه أخيرا كأعمى استرد فجأة بصره جاء متأخرا.

مشحونة أنا بحزن قاتم .

ممزقة بين الشفقة على نفسي وعلى أطفالي .

مازلت لم أبلغ الخامسة والعشرين من العمر وأحمل قلبا شاخ وتجعدت أخاديده وتلونت بالسواد.

حتى جسمي الفتي تبلدت أعصابه وخمدت , لم يعد قادرا على حملي , بل لم أعد قادرة على حمله.

أنزوي في ركن من الغرفة لأراقبه أو ألبي شأنا له وما أكثر شؤونه.

كان لا يستطيع أن يستقر على وضع في فراشه, أقلبه من جنب إلى آخر كل بضع دقائق, يحرك ساقيه حتى يزيح الغطاء وعندما يسقط تحت السرير يطلب أن أغطيه ثانية.

كان موجوعا , يرزح تحت نير سرطان عشش في كامل أنحاء جسده حتى أنه لم يعد يعرف أي من أعضائه يؤلمه أكثر.

❖❖❖❖❖

وجاء الربيع واقتربت معه النهاية , نهاية زوجي ونهاية حملي .صار بطني مكورا أمامي, أتحرك معه بصعوبة ولم

يبق من زوجي إلا هيكل عظمي تعلوه عينان شاحبتان ما تزال تنبض ببعض حياة وبالكثير من الوجع.

صار يغيب عني ليحلق في عوالم أخرى لا أطالها ثم يعود ليحدثني بصوت غائم عن والده الذي أتى لزيارته وحمله معه ليشتري له كل ما يريده .

قال أنه , أي المرحوم والده , لن يضرب أمه مرة أخرى وأنه سيحسن معاملتها هي وأختيه وسيعيشون معا ولن يفرقهم شيء .

تكاد روايته هذه تتكرر يوميا .

في غيبوبته, زوجي يسترد ماضيا أليما عاشه في ظل عائلته أيام الصغر والآن عرفت أن ما فعله معي طيلة شهور زواجنا القصير لم يكن إلا استعادة لما حدث لأمه.

زوجي كان ضحية عنف والده مع أمه , تلبسته صورة الأب العنيف منذ أن كان طفلا صغيرا فتماهى معها ودمرته قبل أن تدمرني .

استبطن كل أوجاع الطفولة القاسية , همه كان إسعاد أمه وتعويضها وإعادة إنتاج صورة أبيه معي .

لا أعرف إن كان واعيا بهذا الأمر, ما أعرفه أنه في فصامه هذا ,لم يتوان لحظة عن إشعاري بتفاهتي وقلة قيمتي كامرأة وزوجة ولم تنفعني ثقافته ولا إيمانه بقضايا الإنسان والوطن.

❖❖❖❖❖

وجاءت أمه وأختاه.

كان زوجي يبذل الأنفاس الأخيرة وهو يوصي أمه خيرا بي وبأبنائه من بعده ويطلب لآخر مرة مني أن أسامحه,أن أقول أنني أسامحه.

لأول مرة أقترب منه جيدا لأحدثه.. قلت له أن لا يقلق بشأن ابنيه.

هما ثمرة تعبي ونكدي وعذابي،هما كل ما جنيته من أيام الشقاء معه وسيكونان عوني في رحلة البحث عن السعادة القادمة .

أخبرته أيضا أنني أسامحه.

حتى لا أحمل وزر حنقي عليه طوال عمري وحتى لا أظل حبيسة عذاباتي معه وأتحرر منها .

وابتسم زوجي الذي يتأهب لمغادرتنا إلى عوالم أرحب , وقبل يدي ممتنا ليتركها تسقط على صدره ويتوقف قلبه نهائيا عن النبض.

- 7

" ولى زمنهم وأتى زمننا"

هكذا رقصت أحرف مريم تعانق النور على جدارها في شبكة التواصل الاجتماعي .

امرأة أخرى بألوان الحياة.تتجول بجوار الشاطئ تتوسط طفلين صغيرين يمسكانها من يديها ..

يعبث النسيم بشعرها الأسود المنساب على فستانها الأبيض فتتركه يطير من حولها يتنسم الحرية والسكون.

تغيرت مريم,اهتمت بنفسها فصارت أكثر جمالا وإصرارا على افتكاك حقها في الحياة ,وفي السعادة ...

أخذت أمها وابنيها عهد وعلي , وغادرت القرية.

بدأت في بناء منزل صغير في مدينة ساحلية جميلة بنصيبها من منحة وفاة زوجها التي صرفتها لها الوزارة .

بكل مدخرات حياتها , اشترت أمها قطعة أرض صغيرة هناك وسجلتها باسم ابنتها .

❖❖❖❖❖

جهزت مريم غرفة صغيرة وحماما مؤقتا وحملت أدباشها وسكنت فيها وبدأت في البحث عن عمل ..أي عمل..

عندما هاتفتها لأسأل عن أخبارها كانت نبرة صوتها تشي بالكثير من السعادة..قالت إنها استطاعت أن تجد عملا مؤقتا لدى زوجين كهلين يقيمان في بلجيكا لإدارة منزلهما الصيفي أثناء عطلتهما التي تتواصل حتى نهاية شهر أوت

"أنهض كل يوم في السادسة صباحا ,أحضر الفطور وأجهز أبنائي حتى لا أثقل على أمي ثم أغادر إلى عملي الجديد..

أقوم بكل شؤون هذا المنزل ذي الطابع الأوروبي بناء وطريقة عيش رغم أن أصحابه تونسيون ممن أمضوا أغلب سنوات عمرهم خارج تونس فتتطبعوا بطباع الأوروبيين حتى أنني شعرت بأنني أتعامل مع بلجيكيين لا مع أبناء بلدي..

يعاملانني برقي واحترام خاصة عندما علما بأنني من خريجي الجامعة وطلب مني الزوج أن أحضر أوراقي وشهادة تخرجي فهو يعرف من يمكن أن يساعدني على الانتداب في إحدى الوظائف الحكومية..بل وصل بهما الإعجاب بعملي وبشخصيتي أنهما عرضا علي أن أعود معهما إلى بلجيكا ومعي أبنائي لأهتم بمنزلهما هناك وأغرياني براتب كبير ولكنني رفضت..من أجل أمي لا بسببها ..أعرف أنها فرصة قد تغير كل حياتي وقد لا تأتيني مرة أخرى ولكنني رفضتها دون ندم فأنا أبدا لن أترك أمي وحدها بعد كل الذي فعلته من أجلي ..

لذا أنا متصالحة مع نفسي ,سعيدة بعملي في هذا البيت ولا أخجل من ذلك حتى أني أجيب كل من يسألني عن طبيعة عملي بأنني "نخدم في دار"..

يندهشون من إجابتي فأقول " خدمة النهار ما فيها عار" و"اللي ما يخدمش هو اللي يحشم " لدي طفلان ماذا تريدون أن أفعل لأعيلهما ؟..

كنت فخورة بنفسي فأنا أقدم عملا أتقاضى عليه أجرا بغض النظر عن نوعية الخدمة ..أشعر أنها أفضل من العمل مع محامي قد يستغلني ويتعدى علي بأي شكل من الأشكال .

بينما حتى وأنا معينة منزلية فأنا أفيد وأستفيد, تعلمت منهم الكثير من الأشياء وأهمها اللغة ..صرت أتكلم الفرنسية بطلاقة يحسدني عليها الكثيرين.. وصرت أعرف الكثير من معارفهم ممن عرضوا علي أن أعمل عندهم بعد شهر أوت وطوال السنة.

وهكذا ضمنت أنني لن أسقط في البطالة مرة أخرى وأنني سأكون قادرة على إكمال بناء منزلي والأهم سأكون قادرة على إعالة أبنيّ وسأقيهما شر الفقر والحاجة..

وهكذا بعثت مريم من جديد.

- 8

كان صباحا صيفيا مشرقا , تشق شمسه زرقة السماء فتتكسر خيوطها الذهبية على سطح الماء, ويعبق نسيمه برائحة البحر والنوارس.

كان صباحا جميلا واعدا...

انتبذت مريم مكانا على الشاطئ وجلست تتأمل جمالا حجبته عنها عتمة الحياة .

طالما أحبت البحر في صفوه وكدره. وهاهي الآن تمتلك ألوانه وبهجته وتعرف سره والدروب السالكة إليه.

رأيتها تجلس وحيدة تحت مظلة صيفية على شاطئ الرجيش , يعبث النسيم بشعرها المتهاطل على كتفيها كليل دامس .

وهي تزيحه بحركة آلية تتكرر في كل مرة ,كانت تعبث بقلبي و تبعث في جسدي دفئا حميميا آسرا.

مريم ...

لحني الخالد الذي لم أعزفه وسيمفونية القلب الحزين.

مريم...

ملهمتي وسيدة دفاتري وأشعاري...

دنياي التي تركتني منذ اختفت قبل سنوات ثلاث ورمتني على قارعة الشوق والترقب.

مريم ..اختلاجاتي الأولى وجرحي المفتوح أبدا على الأمل والانتظار.

أراها أمامي فأمعن النظر..

كما دائما ,هي الأبهى والأجمل..زادتها السنوات فتنة وألقا.

أتردد في الاقتراب أكثر فأنا مازلت أذكر يوم حاولت التحدث إليها في المبيت الجامعي وكيف صدتني بقسوة

أوجعتني حين صفعتني أمام زملائي الطلبة ولكنها ظلت ساكنة في القلب وبين ثنايا الروح.

متردد أنا وخائف , خائف من خسرانها ثانية ..

لكني لن أترك للحياة فرصة أن تهزأ بي مرة أخرى .

مريم الآن أمامي ..

على مرمى خطوتين من القلب..

وسأبقى طوال عمري القادم ألعن نفسي إن جبنت أمامها.

- سعيد زين .

رفعت رأسها عن الكتاب الذي كانت منغمسة في قراءته فرأيت عينين غزلاويين تتأملانني في اندهاش.

قالت:

- صباح الخير .

قلت وأنا أجازف بالاقتراب أكثر:

-أنت مريم, أنا تعرفت عليك بسهولة فهلا تذكرتني ؟

- لا أعرف,أجابت وهي تحاول جديا أن تتذكرني , وجهك ليس غريبا وكأنني التقيتك يوما ما..

- تذكري كلية الحقوق وذلك الطالب الذي امتدت يده إليك ذات يوم بوردة فبادلته بها صفعة على الخد وعلى القلب.

نهضت مريم من مكانها تاركة الكتاب يسقط على رمل الشاطئ وقالت بارتباك ساحر:

- أنت رمزي ..

لقد بحثت عنك كثيرا في خيالي أروم الاعتذار لك, فما كان يمكنني أبدا أن أجد طريقا إليك في الحياة.

ارتباكها ذاك واعتذارها الذي تأخر عني ثلاث سنوات كاملة حلا عقدة لساني فقلت وأنا أمسك بيدها بشدة حتى لا تسحبها مني :

- أنت حلمي الهارب,أطاردك في النوم وفي الصحو.وإذ وجدتك فلن أتركك تضعين مني ثانية ...

أنت غيمتي التي انتظرت هطولها ليينع قلبي ونجمتي التي تبعث النور في عتمة روحي فتشع دفئا وحياة.

ابتسمت عينا مريم لكلامه واتقدت فيهما الحياة ..

لم تسحب مريم يدها من يد زميلها القديم رمزي بل تركتها ترتاح وأغمضت عينيها الجميلتين.

تمت

جوان 2020

تنويه

مريم ليست امرأة من ورق..هي امرأة هذا الزمن الذي نعيشه ...تعيش في كل البيوت وتعاني ما تعانيه الكثيرات ممن خيرن السكون والاستكانة لوضع هيئ لهن أنه "مكتوب ربي" ولا يستطعن له تغييرا..

قد تكون مستلبة وقد تكون سالبة والأمران سيان ..في مجمل الأحوال بيوتنا مبنية على الانفصام بين ما نريده وما نجده مما لا نريده ونرضى به خوفا من الانفصال ونتائجه ولحسابات كثيرة أخرى..

عندما أتممت كتابة قصتي هذه, كان لزاما علي أن أترك لمريم فرصة الإطلاع عليها قبل أي أحد آخر..

فمريم شخصية حقيقية وكل الأحداث تقريبا من قلب الواقع مع بعض التغيير في أسماء الشخوص والأماكن وهي وأمها من أعطى تفاصيل الحكاية

وعاضدهما في ذلك البعض من الزملاء ممن عاشروا عليا ومريم وعرفوهما عن قرب , أو شاركوهما بعض الأحداث.

وهذا ما كتبته مريم بعد إطلاعها ذات مساء على القصة, أورده كما خطه قلمها.

❖❖❖❖❖

" كانت مريم تظن أنها دفنت كل الذكريات المؤلمة في ذلك الجزء المظلم من قلبها..و ربما هي تتناسى ذلك كي تحاول الصمود والمضي قدما ..هي حقا لا تعرف هل نسيت أم تتناسى..

لكن ما أيقنته أن الولوج في أزقة الذكريات يؤلمها جدا ويكسر قلبها إلى أجزاء صغيرة ..وهي تريد ترميمه فقط من أجل عهد وعلي من أجل رسم حياة أجمل لهما خالية من كل النقائص المادية والمعنوية..

أحيانا تظن مريم أنها والسعادة لن يكونا أبدا في نفس الطريق.

سيدتي حين قرأت كلامك بكيت كثيرا وبحرقة ولكنني ممنونة لك جدا لأنك كنت صوتي الذي خمد داخلي خوفا من عادات المجتمع البالية ونظرتهم لي ..

خوفا من الصورة التي سأخرج فيها زوجي وهو الذي كان محترما ومحبوبا في أوساط عمله ودائرة نشاطه النقابي ...

ربما سيعتبرونني متحاملة عليه وناكرة للجميل فهو من تزوجني وسترني وأعطاني لقب "زوجة الأستاذ"..

شكرا لك الشكر الكثير لأنك كنت المتنفس لي وصدى لخلجات قلبي المنكسر ..

أنت ذلك الصوت الجريء وسط الخوف الذي يأسرني في كل زوايا حياتي..

ربما كلماتك ستساعدني في قادم الأيام على التخلص من عدة عقد نفسية, ورثتها دون وعي من آراء ومعتقدات

وعادات بالية ومقيتة رسخت في ذهني ومارستها من اجل والدتي.والدتي التي مازلت أشعر بالذنب تجاهها وقد فشلت في تحقيق مرادها رغم أنها تتحمل معي بعض المسؤولية في ما حدث لي فهي من شجعتني على هذا الارتباط وحكمت مسبقا بضرورة نجاح هذه العلاقة حتى قبل أن تبدآ ..

سيدتي.. ربما دموعي في هذه اللحظات هي من ستسقي ورود أحلامي وأحلام أطفالي ذات يوم ... وتكون حافزا لي على الانعتاق.

"مريم" جوا 2020